Türkiye
Kitl
Eğitim Araştırmaları Merkezi

التصوير الساخر
في القرآن الكريم

د. عبد الحليم حفني

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

« سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

قرآن كريم

الاخراج الفنى / محمد المحجوب

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لن أعجب اذا استنكر أحد عنوان هذا الكتاب أو موضوعه ، فلم يخل جيل أو عصر من المستنكرين لنسبة ألفاظ يرونها غير لائقة فى نسبتها الى الله كالسخرية والاستهزاء ، وقد رد الامام الزمخشرى على هذا فى أكثر من موضع فى تفسيره المشهور (فان قلت لا يجوز الاستهزاء على الله لأنه متعال عن القبيح ، والسخرية من باب العيب والجهل (١) ألا ترى الى قوله تعالى :

[قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين]

فما معنى استهزائه بهم ؟ قلت : معناه انزال الهوان والحقارة بهم ، لأن المستهزىء غرضه الذى يرمى اليه هو طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به ، وادخال الهوان والحقارة عليه ، والاشتقاق كما ذكرنا شاهد لذلك ، وقد كثر التهكم فى كلام الله تعالى بالكفرة ، والمراد به تحقير شأنهم وازدراء أمرهم ، والدلالة على أن مذاهبهم حقيقة بأن يسخر منها الساخرون ويضحك الضاحكون) (٢) .

على أن الأمر لم يكن فى حاجة الى دفاع مدافع ، فان الذين يستنكرون نسبة هذه الألفاظ الى الله كأنهم يستنكرون تعبير القرآن نفسه ، ويستنكرون

---

(١) المراد بالجهل السفاهة لأنها المعنى الأصلى للجهل فى اللغة .

(٢) انظر تفسير الآية ١٤ من سورة البقرة فى الكشاف (الله يستهزئ بهم) .

وورودها فيه منسوبة الى الله ، فما أكثر ما وردت هذه الألفاظ فى القرآن منسوبة الى الله سبحانه ، والى أنبيائه ، والى الصالحين من عباده ، ومن أمثلة ذلك بالنسبة الى الله فى القرآن :

(ســـخر الله منهـم)

وكذلك :

(الله يستهزىء بهـم)

واذن فيمكن ايجاز موضوع هذا الكتاب كله فى أنه محاولة لشرح كيفية استهزاء الله بأعدائه والسخرية منهم ، ولا شك أن هذا المعنى فيه قصور واضح فى الدراسات الاسلامية حول القرآن قديما أو حديثا ، فلا أعلم أن بحثا طرق هذا الموضوع الا كتابى السابق (أسلوب السخرية فى القرآن الكريم) ولكنى تبينت أن الكتاب لم يحقق كل ما كنت أهدف اليه ، فقد غلب عليه التركيز فى النواحى النظرية للسخرية وما أحاط بها من ملابسات تاريخية فى الاسلام ، بينما كان من أهم أهداف الكتاب ابراز السخرية نفسها وكيفية تصويرها وصياغتها من الناحية البيانية الأدبية ، وكنت أحسب أن القارىء العادى يستطيع أن يتذوق مضمون السخرية فى العبارات الساخرة فى القرآن ، وأن ترتسم فى ذهنه صورتها واضحة حين يستمع الى الصيغة التى صاغ بها القرآن سخريته .

ولكنى تبينت أن ايجاز القرآن ، ودقته البالغة فى اشارة كل كلمة ، بل أحيانا فى كل حرف تجعل السامع العادى وان استوعب المعنى العام للصيغة الا أنه يحتاج الى من يشير له الى مواضع هذه الدقة البالغة ، حتى يستطيع أن يتذوق جمال الصورة ، ويستمتع بأدائها الفنى الزائد عن معناها الظاهر ، فقد كنت أحيانا أستشهد بالآية أو الجملة التى تتضمن سخرية ، مكتفيا بتوضيح السياق والملابسات ، متصورا أن هذا كاف لجعل القارىء يتمثل بناء الصورة الساخرة وهيكلها ، ومن ثم يتذوق جمالها ، ويستمتع بطرافتها ، ولكن الواقع أن هذا الجانب وهو صلب الهدف ، كان يحتاج الى مزيد من التوضيح وتحديد المعالم لكل صورة ساخرة ، وأمل أن يحقق هذا الكتاب بعض ما هدفت اليه .

على أنه ينبغى أن يكون واضحا أن هذا الكتاب لم يهدف الى استقصاء مواضع السخرية فى القرآن ، ولا الى حصر أنواعها أو أهدافها ، وانما كان الهدف ابراز وجود هذا اللون فى القرآن ، وأنه لون واضح من أنواع أساليب القرآن العديدة المتنوعة ، ليكون هـذا مجرد فتح لباب البحث والدراسة فى هذا المجال .

ويمكن ايجاز فكرة هذا الكتاب من حيث أهم جوانبها فيما يلى :

أولا :

استخدام القرآن أسلوب السخرية يشتمل على عدة مزايا وأهداف منهـا .

١ ـ اسباغ روح الطرافة على بعض ما يسرده القرآن ، حتى لا تمل النفس العادية من الاستماع اليه مهما طال استماعها ، وفى الحديث الشريف:

(روحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فان القـلوب اذا كلت عميت)

والترويح يمكن أن يكون بالمزاحة ، وأن يكون بالتسلية ، وبأى شىء يخرج النفس من جفاف الواقع وحدته ، وهو منهج يتأسى به الخطباء والمعلمون والمؤلفون فى لجـوئهم بين الحين والحين الى ما يبعث فى النفس بهجة أو انشراحا بطرفة أو فكاهة أو نحو ذلك حتى لا يمل السامع أو القارىء .

٢ ـ من منهج القرآن الواضح تنوع أساليبه فى عرض المعنى الواحد ، فالقرآن كثيرا ما يعيد عرض بعض المعانى والأغراض ذات الأهمية الخاصة مثل العقيدة ، ولكنه غالبا ما يعيدها فى أساليب متنوعة ، أحيانا فى صورة معنى مجرد ، وأحيانا فى صورة قصة ، وأحيانا فى صورة حوار ، وأحيانا فى صورة اغراء بوعـد ، وأحيانا فى صـورة تخويف بوعيد ، وذلك لسببين ، أحدهما أن أهميتها تستدعى تكرارها ، ولو كررت بأسلوب واحد لمل السامع من تكرارها ، ولكنها حينما تكسى ثوبا مختلفا تصبح كأنها شىء جديد ، والسبب الآخر أن النفوس مختلفة فى نزعاتها وميولها ، فبعض النفوس يستهويها المنطق العقلى المجرد ، وبعضها يستهويها أسلوب القصة ، وبعضها يجذبه صراع الحوار وهكذا ، فقد يستمع بعض الناس الى شىء فيمل سماعه حين يعرض عليه فى أسلوب عادى ، فاذا عرض عليه فى صورة قصة شغفت نفسه بالسماع اليه وهكذا .

فهذا التنويع فى العـرض انما هو من باب الدعوة الى الله بالحكمة ، وليس من باب التكرار ، وقد يكون التكرار لتثبيت المعنى فى النفوس حتى يتاح لها أن تواصل التأمل فيه ، فقـد يكون من الأنسب حينئذ اعادة عرضه بلفظه ، حتى لا تشغل النفس بالصياغة الجديدة للمعنى عن عمق التـأمل ، وهذا مما ورد فى القـرآن فى المعانى التى تحتاج لأهميتها أن تكون ماثلة فى النفوس بصـفة دائمـة .

٣ ـ سخرية القرآن سلاح فعال ذو أثر عميق بعيد ، ولكنه فى حقيقته سلاح دفاع وليس سلاح هجوم ، أما سلاح الهجوم فهو الدين نفسه ، حيث انه بطبيعته هجوم على الشر عامة ، وعلى الكفر بصفة خاصة، فهو حرب على الشر والكفر ، والحرب لابد أن يكون فيها طرفان ، ومن البدهى ألا يستسلم طرف الشر وأيضا الكفر مباشرة والا ما كان فى حاجة الى صراع وحرب ، فسيقاوم بكل ما لديه من قوة ، كما قاوم كل الأقوام أنبياءهم ، ولكن جبهة الشر والكفر فى العادة هى الأقوى اجتماعيا ، حيث ان الأديان لا تملك أساسا من القوة الا كونها على الحق ، وستضغط قوة الشر والكفر على الدين وأتباعه بكل ما تملك من قوة ، وهنا يأتى جانب من جوانب اعجاز القرآن ، وهو أنه يتضمن أسلحة يطلقها على قوى الشر والكفر حين تضغط وتهاجم، ومن بين هذه الأسلحة سلاح السخرية ، الذى لا يكاد يساويه فى خطورته وفى تأثيره سلاح آخر مادى أو معنوى ·

ذلك أن السلاح المادى كالسيف لا يخيف الذين يتصدون للحرب لأنهم يعلمون مقدما أنهم سيواجهونه ، بل كان العرب وخصوصا شجعانهم يفخرون بأنهم يتمنون أن تكون منيتهم تحت ظلال السيوف، ويخجلون أن يموتوا على فراش ، فالذين يتصدون للدين وخصوصا أئمة الكفر هم من هذا الطراز ، فلا يخيفهم السلاح المادى ، وانما تخيفهم كل الخوف السخرية ، ولذلك كانوا يتقون غضب الشعراء وهجاءهم بكل ما يملكون ، فسخرية القرآن اذن أنفذ وأعمق فى جبهة الكفر من أى سلاح مادى ·

وكذلك الأسلحة المعنوية بكل أنواعها كالتهديد والوعيد والاقناع والتنفير وغير ذلك مهما تكن آثارها فانها لن تبلغ أثر السخرية وخصوصا فى مجال معروف للباحثين ، وهو مجال العادات والتقاليد ، فمما يلحظه الباحثون أن للعادات فى الشعوب رسوخا يفوق رسوخ أى شىء ولا يقاومه شىء ، ولذلك فهى كبرى العقبات أمام الأديان ، وأمام كل دعوة اصلاح ، ولكنهم يلحظون أيضا أن أنجح الوسائل فى زحزحة العادات والتقاليد هو أسلوب السخرية ، فانك مهما حاولت أن تقنع شخصا بمساوىء عادة ما كعادة الثأر مثلا ، فانه قد يقتنع نظريا ، ولكنه واقعيا لا يستطيع التخلى عنها ، ولكن أسلوب السخرية لو أحسن استخدامه فهو أنجح وسيلة فى جعل الشخص يتحاشى أن يجعل نفسه موضع سخرية الآخرين ومن هذا المنطلق يمكن أن يتزحزح عن مزاولة عادة من العادات ·

والعادات التى يحاربها الدين هى نوع من الشر ، وأحيانا من الكفر ، كعبادة الأصنام ، واذن فسخرية القرآن فى هذا المجال لا ينافسها سلاح آخر ·

٤ ـ سخرية القرآن تتميز بأنها ليست سبا ولا انتقاصا لذات الانتقاص كما يحدث فى سخرية الناس وهجاء بعضهم بعضا ، وانما هى معالجة لقضايا يهتم الدين بعلاجها بسلاح السخرية وغيره ، ودائما نجد السبب فى السخرية من صلب الصورة الساخرة فى القرآن ، فنفور المشركين من الدعوة الى الله ، وعدم استخدامهم عقولهم ، قضية كبرى يعالجها القرآن بعدة أساليب ، ويجعل من أساليبه السخرية، ووقوف السادة عقبة أمام الدين وحائلا بين العامة والاتجاه الى الله قضية أخرى خطيرة ، يعالجها القرآن بعدة أساليب ، ومن هذه الأساليب السخرية من القادة والزعماء ، وهكذا ·

ثانيا :

أسلوب السخرية فى القرآن من أبرز جوانب الاعجاز فيه ، حيث تتمثل الروعة الفنية فى صوره من أى جانب نظرنا اليها منه ، ومن هذه الجوانب :

١ ـ الصورة الساخرة فى القرآن تبرز أمام المتأمل وكأنها لوحة ناطقة كاملة ، وقد تشتمل الصورة على أكثر من منظر ، ولكنها فى مجموعها تجسد صورة ناطقة بالهدف الذى يهدف اليه القرآن منها ، دون تجاوز هذا الهدف ، وتتركز قوة الصورة وتأثيرها فى جوهرها وليس فى الاعتماد على الألفاظ ، بمعنى أن الانتقاص من المسخور منه ينصب على جوهره وكيانه المعنوى ، دون الاعتماد على ألفاظ جارحة كما يحدث فى سخرية البشر ·

٢ ـ تمتاز الصورة الساخرة فى القرآن رغم ضخامة مضمونها بقلة ألفاظها ، فان الصورة كلها أحيانا تنحصر فى جملة واحدة ، أحيانا فعلية مثل :

[ولا تصعر خدك للناس]

فان هذه الجملة على ايجازها ترسم صورة بالغة السخرية من المختال المغرور حيث تشبهه بجمل مريض بالصعر الذى يصيب الابل فيلوى أعناقها ، وأحيانا جملة اسمية مثل :

[ان شانئك هو الأبتر]